

النظرية الحجاجية بين البلاغة العربية والدرس اللساني التداولي، دراسة تأصيلية

اسم الباحث: الدكتور بدر بن سالم بن جميل السناني.

المؤسسة: جامعة التقنية والعلوم التطبيقية (كلية التربية بالرساتق) - سلطنة عمان.

رقم الهاتف: 0096896235756

البريد الإلكتروني: bader.alsinani@utas.edu.om

تاريخ النشر: 2025/06/20

تاريخ القبول: 2025/06/19

تاريخ الاستلام: 2025/06/15

ملخص:

إن قراءة التراث العربي قراءة فاحصة تؤكد أن أصول النظرية الحجاجية متأصلة في الدرس اللغوي العربي تأصيلاً علمياً، إذ عالج تراثنا البلاغي قضايا الخطاب الحجاجي، وآلياته المنطقية، وأدواته التواصلية، وسبق علماؤنا الدرس التداولي إلى كثير من النظريات الحديثة، وأكدوا أن الحجاج لا يقتصر على ظاهر النص وحده أو المضمون وحده، بل يتعداه إلى دراسة تلك العلاقة التي جمعت بينهما في سياق معين، لذلك يستوجب الوقوف عليه، والبحث عن دلالة الاقتضاء للملفوظات التي ترمي إلى الإقناع أو التفنيد.

اهتم علماء التراث بسياق المقال وملابساته المقامية، والأحوال التي يولد فيها النص، واعتنوا بمضمون الخطاب القضوي، وقوته الحوارية المنجزة، واستلزامها الحوارية، فزاوجوا بين بعدي الحجاج الصريح والضمني؛ لأن طبيعته الخطابية الحوارية تجعل نصفه للمتكلم (أي: النصف المصرح به)، ونصفه للسامع (أي: النصف الضمني) فتكون علاقة الضمني بالصريح هي -على صعيد لساني محض- مندرجة في إطار تداولية مندمجة تجمع بين مدلول حرفي صريح، ومكونات من خارج اللغة؛ أي: دلالة التلفظ الضمني.

تناول تراثنا البلاغي الخطاب من زوايته الدرائعية الغائية التداولية، ووقفوا على فعاليته الحجاجية، وبعديه الاستدلالي والإمتاعي، فجاء تفكيرهم قائماً على منفعية الخطاب، وتمركزت دراساتهم البلاغية على تدعيم وظيفة النص الرئيسة عن طريق مده بالوسائل التي تكفل له النجاح لبيان الغرض، وتحقيق ومنفعته، والتأثير في المتلقي، وهذه القدرة على

الإقناع والتأثير في الآخر لا تكون ممكنة إلا إذا كان في النص قوة خطابية خلاقة قادرة على إحداث التأثير، فتمنح النص سلطانًا طاعيًا لا يقاوم.

يأتي هذا العمل الموسوم بـ(النظرية الحجاجية بين البلاغة العربية والدرس اللساني التداولي، دراسة تأصيلية) ليؤكد ضرورة الجمع بين التراث ونتائج المخابر اللسانية، والاتكاء عليهما؛ بهدف المزاجية بين القديم والحديث في خدمة قضايا اللغة، ويسعى إلى قراءة النظرية الحجاجية في البلاغة العربية والدرس اللساني التداولي، ويحاول الإجابة عن السؤال الآتي: هل عرف تراثنا العربي أصول النظرية الحجاجية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تُمثِّل محور هذا العمل، وجاءت في مبحثين رئيسين، هما:

المبحث الأول: مدخل لدراسة نظرية الحجاج.

المبحث الآخر: المبحث الثاني الحجاج البلاغي (التأثير، والإقناع).

الكلمات المفتاحية

النظرية الحجاجية، الحجاج البلاغي، البلاغة العربية، الدرس اللساني، التداولية

Research summary

A thorough examination of Arabic heritage confirms that the roots of argumentation theory are deeply embedded in Arabic linguistic studies. Our rhetorical heritage addressed issues of argumentative discourse, its logical mechanisms, and communicative tools. Our scholars had insights into many modern theories before the advent of pragmatic studies, asserting that argumentation is not limited to the text's surface or content alone; rather, it extends to the study of the relationship that links the two within a specific context. Therefore, it is essential to explore this relationship and investigate the implications of utterances aimed at persuasion or refutation.

Scholars of heritage focused on the context of discourse and its situational nuances, as well as the conditions under which a text is generated. They paid close attention to the content of judicial discourse and its accomplished dialogical strength, combining both explicit and implicit forms of argumentation. This duality arises because the dialogical nature of argumentation splits its essence between the speaker (the explicit part) and the listener (the implicit part). Thus, the relationship between the implicit and explicit is, from

a purely linguistic perspective, integrated within a pragmatics framework that combines literal explicit meaning and elements external to language, i.e., the implications of implicit utterance. Our rhetorical heritage approached discourse from a pragmatic, goal-oriented perspective, focusing on its argumentative effectiveness and its inductive and pleasurable dimensions. Their thinking was based on the utility of discourse, centering their rhetorical studies on reinforcing the primary function of the text by equipping it with the means necessary for success in conveying its purpose and achieving its impact on the audience. This ability to persuade and influence others is only possible if the text possesses a creative rhetorical power capable of making an impact, granting it an overwhelming authority that is hard to resist.

This work, titled "Argumentation Theory Between Arabic Rhetoric and Pragmatic Linguistics: A Foundational Study," aims to emphasize the necessity of combining heritage with the findings of linguistic laboratories, relying on them to bridge the old and the new in the service of language issues. It seeks to explore argumentation theory in Arabic rhetoric and pragmatic linguistics and attempts to answer the following question: Did our Arabic heritage recognize the roots of argumentation theory?

The answer to this question forms the core of this work, which is divided into two main sections:

- 1- An introduction to the study of argumentation theory.
- 2- The second section: Rhetorical argumentation (influence and persuasion).

Keywords

argumentation theory, rhetorical argumentation, Arabic rhetoric, linguistic studies, pragmatics.

المبحث الأول مدخل لدراسة نظرية الحجاج.

1.1. مفهوم الحجاج.

يدور لفظ الحِجَاج - في أصله اللغوي - على القصد، ومنه المحجة؛ أي: الطريق التي تقصد للسير، والحجة: الدلالة المبينة للمحجة. فالحِجَاجُ مصدر الفعل حَاجَّ، تقول: حاجَّه مُحَاجَّةً، وحِجَاجًا، والحُجَّةُ الدليل والبرهان، و"الحجة الدلالة المبينة للمحجة أي المقصد المستقيم، والذي يقتضي صحة أحد النقيضين"¹، والمحاجة هي " تثبت القصد، والرأي لما يصححه"².

أمَّا في الاصطلاح فقد جاء في موسوعة لالاند الفلسفية إلى أن "الحِجَاج سلسلة من الحجج تنتهي بشكل كلي إلى تأكيد النتيجة نفسها، ويوصف بأنه طريقة تنظيمية في عرض الحجج، وبنائها، وتوجيهها نحو قصد معين، يكون عادةً للإقناع والتأثير، فتكون الحجة في هذا السياق بمثابة الدليل على الصحة، أو الدحض"³.

يتميز مفهوم الحجاج بارتباطه بالدليل والبرهان الذي لا يدع مجالاً للإنكار أو التردد،

1.2. أنواع الحجاج.

يرى عبد الله صولة أن الحجاج في الدراسات الحجاجية على ضربين:⁴
إلا أن كثيرا من الدراسات تشتق من هاذين الضربين حالات متباينة، تختلف باختلاف زوايا التناول، ولعل من أشهر أنواع الحجاج:

- الحجاج الجدلي.

- الحجاج المنطقي.

- الحجاج البلاغي التواصل.

1.2.1. الحجاج الجدلي.

¹ - الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد. مفردات غريب القرآن. تحقيق محمد كيلاني. ط 1. بيروت: دار المعرفة. د. ت. ص 107.

² - المناوي، محمد عبد الرؤوف. التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق محمد الداية. ط 1. بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر. 1990. ص 640.

³ - أندريه لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية. ترجمة خليل أحمد. ط 1. بيروت: منشورات عويدات. 1996. ج 2 ص 176.

⁴ - المرجع السابق. ص 8.

تجعل كثير من الدراسات الحجاج مرادفا للجدل، يقول ابن منظور: "هو رجل محجاج؛ أي: جَدِلٌ"¹، ويعرف ابن خلدون (ت 808 هـ) الحجاج في مقدمته بأنه مناظرة يستعمل فيها لفظ الجدل، بينما يرى آخرون أن ثمة فرقا بين الجدل والحجاج في كون المطلوب بالحجاج هو ظهور الحجة، والمطلوب بالجدل الرجوع عن المذهب²، ويؤيده قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾³، و﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁴؛ لأن دأب الأنبياء (عليهم السلام) كان ردع القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله؛ ببذل القوة، والعمل بالاجتهاد في إيراد الأدلة والحجج.

يوصف الحجاج الجدلي بأنه جدال سفسطائي، ويُراد به "تبادل الحجج أو استعراض الأفكار وتبادل وجهات النظر المختلفة من أجل الوصول إلى الحقيقة"⁵، أو هو "الجدل بين طرفين، دفاعا عن وجهة نظر معينة، يكون - غالبا - تحت لواء المنطق، ومقاييس الاستدلال"⁶، قال الباجي: "الجدل تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه"⁷.

يُعدُّ الحجاج الجدلي من أقدم أنواع الجدال، والمثال عليه من القرآن قصة إبراهيم (عليه السلام) والنمرود، فهو يعتمد على استدراج الخصم إلى القول ثم محاكمته من خلال قوله، بإبطاله وإظهار تناقضه، وقد عرف الفلاسفة اليونان الأوائل، والسفسطائيون المنهج الجدلي، واتخذوه منهجا لإقناع الآخرين، أو التأثير فيهم، واستعمل - أيضا - وسيلة للوصول إلى الحقيقة، أو بناء المعرفة⁸.

كان السفسطائيون علماء في البلاغة، وأساتذة لنظريات المعرفة، وكانت البلاغة التي هي فن تأليف الخطب المقنعة وإلقائها، اختراعهم الأدبي الكبير، وقد أسهموا في ارتقاء النثر، وظهرت المدرسة السفسطائية في القرن الخامس قبل الميلاد، ومعنى السفسطائية الحكمة

¹ ابن منظور. لسان العرب. مادة (حجج).

² أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل. الفروق اللغوية. تحقيق إيهاب إبراهيم. ط 1. القاهرة: مكتبة ابن سينا. 2013. ص 110.

³ سورة هود: 32.

⁴ سورة النحل: 125.

⁵ حمداوي. نظريات الحجاج، ص 8.

⁶ المرجع السابق. ص 8.

⁷ أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف. المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي. ط 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 2001. ص 11.

⁸ حمداوي. نظريات الحجاج، ص 9.

المموهة، وقد استعملت الحجاج الجدلي للتضليل، والتشكيك، وتعتيم الحقيقة، فحججهم حجج مموهة، توهم أنها حجة، وليست بحجة، وقد استخدم السفسطائيون اصطلاح (لوجوس أورثوس) أي: العقل السليم، أو الحجة السليمة، للإشارة إلى المبادئ، والقواعد المنطقية التي ينبغي اتباعها للوصول إلى الاستنتاجات السليمة التي يمكن استخدامها لتقديم وجهة نظر ما بطريقة سليمة¹.

1.2.2. الحجاج المنطقي (الحجاج الرياضي).

يُعدُّ سقراط رائد الفلاسفة اليونانيين، وهو رائد المذهب العقلاني القائم على التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل؛ لإثباته، أو نفيه، أو تحديد خصائصه²، وبهذا غيَّر سقراط مجرى الفلسفة، وثار ضد مبادئ السفسطائيين، ودافع عن الفلسفة بكونها المسلك العلمي الصحيح للوصول إلى الحقيقة، واعتمد سقراط على العقل، والجدل التولدي، والبرهان المنطقي، وكان هدفه من الفلسفة تحقيق الحكمة العقلية، وخدمة الحقيقة لذاتها.

اختار الفلاسفة الحجاج البرهاني والمنطقي الذي وضع أسسه أرسطو في كتابه عن المنطق، وسَمَّاه بأورغانون (Organon)³، ويرى أهل اللغة أن الحجاج المنطقي هو نفسه ما عُرِفَ في علم البيان بالاحتجاج النظري، أو البرهان العقلي، وهو "أن يذكر المتكلم معنى يستدلُّ عليه بضروب من المعقول"⁴، أو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج. سَمَّى الحبيشي هذا الأسلوب بالأسلوب العقلي، وهو "أن يورد المتكلم على صحة دعواه حجة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب"⁵، ويرى الزركشي (ت 794 هـ) أنه الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع له المعاند فيه⁶.

¹ - المرجع السابق، ص 9.

² - الخراشي، سليمان بن صالح، نقض أصول العقلانيين، ص 26، الكتاب منشور على موقع العقيدة. www.aqeedeh.com

³ - حمداوي، نظريات الحجاج، ص 18.

⁴ - أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود، وآخرين، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، ج 3 ص 96.

⁵ - الحبيشي، فهد عبد الله، رَبِّي الظُّمَانُ فِي بَيَانِ الْقُرْآن، ص 88، الكتاب منشور على موقع المكتبة العربية.

www.arablib.com

⁶ - الزركشي، محمَّد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2006، ص 710.

يطلق أكثر رجال البلاغة على هذا الضرب من الاحتجاج اسم المذهب الكلامي، وهو منسوب إلى أبي عثمان الجاحظ¹، يقول ابن المعتز (ت 296 هـ) في كتابه البديع: إن الجاحظ (ت 255 هـ) سمّاه هذه التسمية²، وجعله ابن المعتز (ت 296 هـ) الباب الخامس من البديع، وزعم أنه لا يوجد منه شيء في القرآن الكريم، يقول: "ما أعلم أني وجدت شيئاً منه في القرآن، وهو ينسب إلى التكلف، فنسبه إلى التكلف"³. وهذا قول مردود؛ لأنه لم يُستشهد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن⁴، لهذا أقرُّوا "أن المذهب الكلامي هو أن يأتي البليغ على صحة دعواه"⁵.

يتضمن علم الكلام الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات⁶، أو هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تفلّ سلاح المعاند المكابر، وتقطع بينته، على طريقة علماء الكلام؛ لأن علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بحجج عقلية وبراهين قاطعة تدحض اللجاج، ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة.

يقوم الحجاج المنطقي على التلازم المنطقي، كأن تقول: العماني أسوي، تقول: محمد عماني، فالمنطق إذا يقول: إن محمداً أسوي.

أو تقول: المسجد الحرام في المملكة العربية السعودية، تقول: أنا في المسجد الحرام، فالمنطق إذا يقول: أنا في المملكة العربية السعودية.

صور الحجاج المنطقي في القرآن الكريم كثيرة، يقول أبو حيان (ت 745 هـ) في تفسيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾⁷؛ أي: أنشأناه، واخترعناه من العدم الصرف إلى الوجود، فكيف ينكر النشأة الثانية، وهذه الحجة في غاية الاختصار، والإلزام للخصم، ويسمى هذا النوع الاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي⁸.

¹ ابن حجة الحموي، أبو بكر علي بن عبد الله. خزانة الأدب وغاية الأرب. تحقيق عصام شعيتو. ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 1987. ج 1 ص 364.

² ابن المعتز، أبو العباس عبد الله. كتاب البديع. تحقيق إغناطيوس كراتشوفسكي. ط 3. بيروت: دار المسيرة. 1982. ص 53.

³ المرجع السابق. ص 53.

⁴ ابن حجة. خزانة الأدب وغاية الأرب. ج 1 ص 364، والنويري، أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2004. ج 7 ص 95.

⁵ ابن حجة الحموي. خزانة الأدب وغاية الأرب. ج 1 ص 364، والنويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. ج 7 ص 95.

⁶ ابن خلدون. المقدمة. ص 264.

⁷ سورة مريم: 67.

⁸ أبو حيان الأندلسي. تفسير البحر المحيط. ج 6 ص 195.

يرد هذا الاحتجاج في القرآن كثيرا، ومن صوره الآتي:¹

الشاهد	السؤال	الإجابة	النتيجة المنطقية
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. (سورة النساء: 82)	هل وجدوا فيه اختلافا؟	لا. لم يجدوا فيه اختلافا	القرآن من عند الله
﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. (سورة البقرة: 94- 95).	هل سَيَتَمَنَّوْنَ الموت؟	لَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا	ليست لهم الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوَنَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. (سورة الجمعة: 6 - 7).	هل يَتَمَنَّوْنَ الموت؟	لَا يَتَمَنَّوَنَّهُ أَبَدًا	ليسوا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. (سورة الأنبياء: 22).	هل فَسَدَتِ السموات والأرض؟	لا. لم تفسد، ولن تفسد.	ليس فيهما آلهة إِلَّا اللَّهُ. فلا إله إلا الله
﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. (سورة الزخرف: 81).	هل عَبَدَ محمد هذا الولد؟	لا. لم يعبد محمد إلا الله.	ليس لله ولد.

1.2.3. الحجاج البلاغي التواصلية. (يرتبط بالأعمال اللغوية).

اعتمد نجاح البلاغة على العلاقة اللازمة بينها وبين دراسة وسائل الإقناع في مجتمع يتجه يوما بعد يوم نحو علوم التحريض والدعاية، فسيادة وسائل الإعلام في ثقافتنا تجعل من الخطابة بوصفها ممارسة إبداعية للإقناع، ومن البلاغة بوصفها تقنية ملائمة للإقناع

¹ - المرجع السابق، ج 6 ص 195.

أيضاً¹، وجعل برلمان (Perelman) وتيتيكاه البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج؛ فقد حصراً الأولى في الأخيرة، إلا أن الخطاب ينطوي من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية²، لكن مفهوم أوسكمبر (Auskmbar) وديكرو (Ducrot) مختلف، فقد ربطاه في مؤلفهما المشترك الحجاج في اللغة من حيث بنيته من ناحية، ومن حيث وظيفته من ناحية أخرى، فالحجاج عندهما يكون بتقديم المتكلم قولاً - أو مجموعة أقوال - يفضي إلى التسليم بقول آخر، أو مجموعة أقوال أخرى³،

المبحث الثاني الحجاج البلاغي (التأثير، والإقناع)

إن للحجاج وظيفتين رئيسيتين هما: التأثير والإقناع، فالتأثير مرتبط بالعاطفة والوجدان، ويرتبط الإقناع بالعقل والمنطق، وكانت هذه وظيفة البلاغة القائمة على التبليغ والبيان، والتواصل الناجح بين المرسل والمستقبل، فمتى تحقق التناسب بين الموضوع والأسلوب تحقق وجه من أوجه البعد التداولي الجمالي للبلاغة تبعاً لتحقيق التناسب بين المقام والمقال والرسالة ولغتها، لذا قالوا: "البلاغة قول مُفَقَّهٌ في لطف"⁴؛ لأن التبليغ والإفهام وتمكين المعنى في نفس المتلقي من الغايات الجوهرية للقول البليغ، فالبلاغة - عند العسكري (ت 395 هـ) - "كل ما تُبَلِّغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"⁵.

هدفت البلاغة إلى التأثير في المستمع وإقناعه، لذا تَوَجَّهَتْ رسالة البلاغة إلى المستمع أو القارئ لتؤثّر فيه، وقد أشار البلاغيون إلى أنّ المخاطبين الذين يُلقى إليهم الخبر يصنّفون إلى ثلاثة أصناف، وهم: مُخاطَبٌ خَالِي الذِّهْن، ومُخاطَبٌ شَاكٌّ مُتَرَدِّدٌ، ومُخاطَبٌ جَادِدٌ مُنْكَرٌ⁶. إنّ الحكم المبسوط في الاستعمال اللغوي يرتبط تجريداً أو تأكيداً بحسب ما تقتضيه أصناف المخاطب، والخطاب الحجاجي يستدعي الإفهام، والتأثير، والإقناع، وهذه الأبعاد

¹ -خوسيه ماريا. نظرية اللغة الأدبية. ترجمة حامد أبو حمد. ط 1. القاهرة: دار غريب. 1992. ص 177.

² -صولة عبد الله. الحجاج في القرآن. ص 33، ولد محمد الأمين، محمد سالم. مفهوم الحجاج عند برلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة. مقال منشور في مجلة عالم الفكر. الكويت. العدد 3. يناير 2000. ص 57.

³ -صولة عبد الله. الحجاج في القرآن. ص 33.

⁴ -أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله. الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق علي البجاوي ومحمد إبراهيم. ط 2. بيروت: المكتبة العصرية. 1989. ص 57.

⁵ -المرجع السابق. ص 16.

⁶ -محمد العمري. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية. ط 2. الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق المغرب. 2002. ص 35.

الثلاثة، هي التي نادى بها الفلاسفة والبلاغيون والنقاد، فقد عرض رامان سلدن (Raman Selden) آراء سيسرو (Cicero)، وذكر ثلاثة أساليب خطابية، وهي:¹

أولاً: الأسلوب المتدني الذي يبني على الواضح؛ بغرض الإفهام، وبيان الدليل، وهذا الأسلوب يناسب الخطاب التعليمي، فأصحابه "واضحون وموجزون في الأسلوب، يشرحون كل شيء، ويؤثرون الوضوح على الغموض، ويستخدمون أسلوباً مهذباً ومركزاً، وخالياً من الزينة والزخرفة"².

ثانياً: الأسلوب المتوسط الذي يأتي للمتعة، ويحقق الجانب الجمالي.

ثالثاً: الأسلوب الرفيع الذي يسعى فيه قائله إلى الإقناع، أو السيطرة على رأي شارودو (Charaudeau) فهو يرى أن "الذي يمتلك زمام اللغة يمتلك سلطة التصرف، والأمر، والنهي، والتوجيه عن طريق التأثير والإقناع"³.

تكمُن قوة الخطيب الكاملة في الأسلوب الرفيع، لذا يجب أن يكون ذا بصيرة، ليس فقط في الفكر، ولكن أيضاً في الكلمات؛ لا يبتعد هذا القول عن فكر أبي عثمان الجاحظ (ت 255 هـ)، حيث قسّم وظائف البيان إلى ثلاث وظائف رئيسة، هي:⁴

1- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياد)، إظهار الأمر إخباراً، بقصد الإفهام، وهذا يلتقي مع الأسلوب المتدني المخصص للتعليم.

2- الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف)، تقديم الأمر على وجه الاستمالة، وجلب القلوب، وهذا يلتقي مع الأسلوب المتوسط الذي يركز على الجوانب الجمالية.

3- الوظيفة الحجاجية (حالة خصام)، إظهار الأمر على وجه الاحتجاج، والاضطرار، وهذا يلتقي مع الأسلوب الرفيع.

انصب جهد الجاحظ (ت 255 هـ) في تحقيق نفعية الخطاب، وهو يُعدُّ مؤسس البلاغة العربية، فهو يرى أن: "مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"⁵، اعتنى الجاحظ (ت 255 هـ) بالوظيفة التأثيرية المبنية على الإفهام والإقناع،

¹- عبد بلّيع، نظرية بلاغة الحديث النبوي. مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة. العدد 25. د. ت. ص 22.

²- المرجع السابق. ص 22.

³- حمداوي، نظريات الحجاج، ص 43.

⁴- العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها. ط 1. الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق. 1999. ص 212.

⁵- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 2009. ج 1 ص 35.

وقد ينضاف إليهما الإثارة والتشويق¹، لذا جعل محمد العمري التداولية بُعدًا جاحظًا في أساسه²؛ يقول حمادي صمود: "لما كانت غاية المتكلم من السامع الفهم والإفهام - بالدرجة الأولى - تركز جهد أبي عثمان الجاحظ على شفافية الخطاب، وهي قدرة العلامة والنص على الإشارة إلى ما سواهما، من هنا انطبعت محاولة الجاحظ بطابع نفعي واضح، يمكن أن يُعدّ - بدون مبالغة - أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى بنفعية الخطاب"³. إن كل هذه الوظائف - على رأي بو بكري - تشكل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة؛ لكونها مقارنة تهتم بالتواصل بالدرجة الأولى، والإقناع، والتأثير، وإيصال المعنى، وتقديم الفائدة، ومنه فإن غايتها منفعية بحته⁴. وقد كانت العرب في حديثها تراعي بُعد الإفهام المتعلق بالرسالة اللغوية نفسها، أو ما يتعلق بالمتلقي، فقد "قيل لأبي عمرو بن العلاء: أكانت العرب تطيل؟ فقال: نعم لتبلغ، قيل: أ فكانت توجز؟ قال: نعم، ليُحفظ عنها"⁵، والواقف على الحديث الشريف يلمح أنه يجمع بين الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية، والوظيفة الحجاجية، ومنه قول النبي (ﷺ): (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)⁶، فالحديث يأتي مختصرًا يناسب الناحية التعليمية، ليسهل حفظه، ويشيع هذا اللون من الخطاب في مواطن "المواعظ والوصايا التي يُراد حفظها ونقلها، لذلك لا ترى في الحديث عن رسول الله (ﷺ) والأئمة شيئًا يطول، وإنما يأتي على غاية الاختصار والاختصار"⁷.

أما في مواطن الإقناع والجدال فيبنى الحديث على الحجاج والإقناع، والاستدلال، وقد امتاز النبي (ﷺ) ببلاغة فاقت بلاغة القوم، وعجزوا أن يجاروه، يقول البيهقي: "إذا عُلِمَ أن هذا التبیین كان لقوم يتصاولون بالبيان، ويتقارعون بالفصاحة، فلا بد أن يكون الذي يتولى

¹ عمر إدريس عبد المطلب. حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي. ط 1. المملكة العربية السعودية: دار الجنادرية للنشر والتوزيع. 2009. ص 137.

² العمري. البلاغة العربية أصولها وامتدادها. ص 293.

³ حمادي صمود. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري. د. ط. تونس: منشورات الجامعة التونسية. 1981. ص 300.

⁴ بو بكري، راضية خفيف. التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية. مجلة الموقف الأدبي. مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق. العدد 399. يوليو 2004. ص 3.

⁵ ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. ط 3. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج 1 ص 84.

⁶ الحميدي، محمد بن فلاح. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم. تحقيق علي حسين البواب. ط 2. بيروت: دار ابن حزم. 2002. ج 3 ص 27.

⁷ ابن وهب، إسحاق بن إبراهيم. البرهان في وجوه البيان. تحقيق حفني محمد شرف. ط 1. القاهرة: مطبعة الرسالة. 1969. ص 97.

هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان والمنطق أشدهم عارضة، وأقواهم حجة، ولا بد أن يكون الذي اختاره لهذه الهداية قد مَكَّنَّ له في منبته، وفي نفسه من عوامل السداد والتوفيق ما يُحرز به الفلج الحاسم في ملأ لُبِّ أبناء¹.

لقد راعت البلاغة العربية البعد النفسي ومدى تأثير اختيار الألفاظ دون غيرها في المتلقي، مما يساعد على تحقيق الحجاج البلاغي التداولي، ومن يقف على عتبات النص القرآني يلمح هذا الخط واضحاً، وأن ألفاظ النص القرآني قد بلغت الغاية في دقة الاختيار، وملاءمة السياق الذي ترد فيه²، حيث يعتمد النص القرآني إلى انتقاء لفظة لا يغني عنها غيرها، ولا تسد محلها أختها، فجاءت ألفاظه منسجمة مع أبعاد المخاطب النفسية، وناسبت تراكيبه حالة المتكلم الوجدانية، وصيغَ نظمُه مقتضياً آثارَ المعاني، ومرتباً على حسب ترتيب المقاصد في النفس، ومراد المتكلم، يقول الجرجاني (ت471 هـ): "حتى يكون لوضع كلِّ حيث وضع علّة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضع في مكانٍ غيره لم يصحَّ"³، وهذا ما يقوي الحجة، فمن الشواهد القرآنية ما جاء في إقامة الحجة على اليهود، ودحض زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأن لهم الدار الآخرة خالصة، فجاءت المفردة القرآنية تناسب إزهاق دعوهم، وتكشف لنا شيئاً من خفايا نفوسهم، وتبيّن أسرار قلوبهم في خوفهم من ذكر الموت، لذا كان القرآن يلجهم بميسم الخزي عقب كل تحدٍ.

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَئِنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: 94 - 95).

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (سورة الجمعة: 6 - 7).

قول اليهود	التحدي	رد القرآن
لَنَا (الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً)	تَمَنَّوُا الْمَوْتَ	وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ

¹ البيومي، محمد رجب. البيان النبوي. ط 2. القاهرة: دار الوفاء. 2002. ص 53.

² ينظر: القطيطي، بدر بن سالم. أثر الجوانب النفسية في اختيار المفردة القرآنية، دراسة دلالية في ضوء علم اللغة النفسي. المؤتمر الدولي السادس للغة العربية الذي أقيم في إمارة دبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة، في الفترة من 1 إلى 4 مايو 2017. البحث منشور على موقع المجلس الدولي للغة العربية almajless@live.com.

³ الجرجاني عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق سعد الفقي. ط 1. القاهرة: دار البقین. 2001. ص 57.

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا		نَحْنُ (أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ)
-------------------------------	--	---

جاء رد القرآن عليهم مطابقا مقدار خوفهم، ومبطلا ادعاءهم، وفاضحا كذبهم، فلما كان الحديث عن زعم دنيوي، والآخر أخروي؛ اختلفت الأداة الزمنية في التركيبين بين (لا) و(لن)؛ لتباين الحالة النفسية الموصوفة، لذا فالزمن النحوي الذي تسهم فيه الأداة في التركيب يختلف تبعا لحالة السياق الشعورية، ومقاماته النفسية التي يصفها التركيب، فجاءت (لا) - في سورة الجمعة - محل (لن)، وكتاهما دالتان على نفي الزمن مع الاختلاف في استعمالها، فسيبويه (ت 180 هـ) يرى أن (لا) لنفي المستقبل البسيط، و(لن) لنفي الفعل في المستقبل المطلق¹، لهذا ارتبط النفي المطلق بآية البقرة؛ لأن القضية تتعلق بأمر أخروي مستقبل فنفي ب(لن)؛ لأنها جواب (سيفعل)، أما في سورة الجمعة فإن زعمهم دنيوي ووصف حالي لا استقبال فيه، فناسبه النفي ب(لا)، فجاءت الأداة الزمنية متناسبة مع اللحظة الشعورية والنفسية التي تبرز من خلال السياق.

تؤكد الدراسات اللغوية أن المفردة القرآنية تمثل دقة في الدلالة وترجم وجدان المتكلم، وتكشف أبعاده النفسية، وهذا ينسحب على اختيارات المتكلم من لغته ما يناسب حالته ومقامه، فيختار العبد في مقام الدعاء والانكسار كلمة (رب) دون لفظ الجلالة (الله)، لأنه في موضوع يحتاج فيه إلى عطاء الربوبية، فلا يضع غيرها من أسمائه الحسنى عز وجل "فقد اطرده ذكر هذه المفردة؛ أي: (رب) في حالة الدعاء حيث يكون المرء في ضعف"².

خاتمة

عالج تراثنا البلاغي قضايا الخطاب الحجاجي، وآلياته المنطقية، وأدواته التواصلية، وسبق علماؤنا الدرس التداولي إلى بيان كثير من النظريات ومنها أن الحجاج لا يقتصر على ظاهر النص وحده أو المضمون وحده، بل يتعداه إلى دراسة تلك العلاقة التي جمعت بينهما في سياق معين، لذلك يستوجب الوقوف عليه، والبحث عن دلالة الاقتضاء للملفوظات التي ترمي إلى الإقناع أو التفنيد.

¹ - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تحقيق إميل يعقوب. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1999. ج 3 ص

117، وج 4 ص 342.

² - أحمد ياسوف. جماليات المفردة القرآنية. ط 2. دمشق: دار المكتبي. 1999. ص 34.

اهتم علماء التراث بملابسات المقال السياقية، والأحوال المحيطة به، واعتنوا بقوته الحوارية المنجزة، واستلزامها الحوارية، فزاجوا بين بعدي الججاج الصريح والضماني؛ لأن طبيعته الخطابية الحوارية تجعل نصفه للمتكلم (النصف المصرح به)، ونصفه للسامع (النصف الضمني) فتكون علاقة الضمني بالصريح هي - على صعيد لساني - مندرجة في إطار تداولية مندمجة تجمع بين مدلول حرفي صريح ومكونات من خارج اللغة، وهي دلالة التلفظ الضمني.

تناول تراثنا البلاغي الخطاب من زوايته الذرائعية الغائية التداولية، ووقفوا على فعاليتها الحجاجية،

مراجع العمل

- الترتيب قائم على الترتيب الألفبائي، دون اعتبار آل التعريف، وأبو، وابن، وكلمة (إمام).
- أحمد ياسوف. جماليات المفردة القرآنية. ط 2. دمشق: دار المكتبي. 1999.
- الأزهرى، محمد بن أحمد. تهذيب اللغة. تحقيق عبدالسلام هارون. د. ط. القاهرة: الدار المصرية. 1976.
- أرسطو. كتاب الخطابة. ترجمة عبد الرحمن بدوي. ط 1. بيروت: دار القلم. 1979.
- ابن أبي الأصبع، أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد. تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تحقيق حفي محمد شرف. ط 1. القاهرة: دار التعاون. 1995.
- البيومي، محمد رجب. البيان النبوي. ط 2. القاهرة: دار الوفاء. 2002.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 2009.
- الحميدي، محمد بن فتوح. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم. تحقيق علي حسين البواب. ط 2. بيروت: دار ابن حزم. 2002.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. تحقيق محمد على النجار. ط 3. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جون ليونز. اللغة والمعنى والسياق. ترجمة عباس صادق. ط 1. بغداد: دار الشؤون الثقافية. 1987.
- الحبيشي، فهد عبد الله. رَبِّ الظُّمَانِ فِي بَيَانِ الْقُرْآنِ. الكتاب منشور على موقع المكتبة العربية. www.arablib.com.
- ابن حجة الحموي، أبو بكر علي بن عبد الله. خزانة الأدب وغاية الأرب. تحقيق عصام شعيتو. ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 1987.

- حمادي صمود. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري. د. ط. تونس: منشورات الجامعة التونسية. 1981.
- حمداوي، جميل. نظريات الحجاج، بحث إلكتروني منشور على موقع الألوكة www.alukah.net.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي. تفسير البحر المحيط. تحقيق عادل عبد الموجود، وآخرين. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2001.
- الخراشي، سليمان بن صالح. نقض أصول العقلانيين. الكتاب منشور على موقع العقيدة. www.aqeedeh.com.
- ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد. المقدمة (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). ط 1. بيروت: دار صادر. 2000.
- خوسيه ماري. نظرية اللغة الأدبية. ترجمة حامد أبو حمد. ط 1. القاهرة: دار غريب. 1992.
- الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد. مفردات غريب القرآن. تحقيق محمد كيلاني. ط 1. بيروت: دار المعرفة. د. ت.
- سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. الكتاب. تحقيق إميل يعقوب. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1999.
- طبانة، بدوي. البيان العربي. ط 5. بيروت. دار العودة. 1972.
- عمر إدريس عبد المطلب. حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي. ط 1. المملكة العربية السعودية: دار الجنادرية للنشر والتوزيع. 2009.
- الفيومي، أحمد بن محمد. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. تحقيق عبد العظيم الشناوي. د. ط. القاهرة: دار المعارف. د. ت.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. غريب الحديث. تحقيق عبد الله الجبوري. ط 1. بغداد: مطبعة العاني. 1977.
- القطيطي، بدر بن سالم. أثر الجوانب النفسية في اختيار المفردة القرآنية، دراسة دلالية في ضوء علم اللغة النفسي. المؤتمر الدولي السادس للغة العربية الذي أقيم في إمارة دبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة، في الفترة من 1 إلى 4 مايو 2017. البحث منشور على موقع المجلس الدولي للغة العربية almajless@live.com.
- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله. كتاب البديع. تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي. ط 3. بيروت: دار المسيرة. 1982.

- المناوي، محمد عبد الرؤوف. التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق محمد رضوان الداية. ط 1. بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر. 1990.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. لسان العرب. تحقيق ياسر أبو شادي، ومجدي السيد. د. ط. القاهرة: المكتبة التوفيقية. د. ت.
- نخلة، محمود أحمد. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ط 1. مصر: دار المعرفة الجديدة. 2002.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2004.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله. الصناعتين الكتابة والشعر. تحقيق علي البجاوي ومحمد إبراهيم. ط 2. بيروت: المكتبة العصرية. 1989.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل. الفروق اللغوية. تحقيق إيهاب إبراهيم. ط 1. القاهرة: مكتبة ابن سينا. 2013.
- هنريش بليث. البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص. ترجمة محمد العمري. ط 1. المغرب. فاس: منشورات دراسات منال. 1989.
- ولد محمد الأمين، محمد سالم. مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة. مقال منشور في مجلة عالم الفكر. الكويت. العدد 3. يناير 2000.
- أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف. المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي. ط 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 2001.
- ابن وهب، إسحاق بن إبراهيم. البرهان في وجوه البيان. تحقيق حفي محمد شرف. ط 1. القاهرة: مطبعة الرسالة. 1969.